تحوّل القبلة ومسجد القبلتين

محمد علي المقدادي

قال الله تبارك وتعالىٰ في كتابه العزيز:

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَاوَلَّٰهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَنْ يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيم * وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنْتَ عَلَيْهَآ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَه وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ * وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ ٱلظَّالِمِينَ * ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَعْرِفُونَه كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ

فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ * وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فاسْتَبِقُوا ٱلْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ ٱللهُ جَمِيعاً إِنَّ ٱللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ * وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِنَّه لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا ٱللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُم شَطْرَه لِئَلاّ يَكُونَ لِلنّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[1].

إن تحوّل القبلة من بيت المقدس[2] إلى الكعبة المشرَّفة من أهم الوقائع التي حدثت في غرب المدينة المنورة، بعد هجرة رسول الله ﷺ إليها من مكّة المكرّمة، وبعد مضي أكثر من أربع عشرة سنة من أداء الصلاة ودفن الموتىٰ وذبح الذبائح إلى القبلة الأُولىٰ ببيت المقدس.

هذه الواقعة حوت مراتب كبيرة من الأُمور الدينية والتشريعية والأخلاقية والتربوية والتأريخية، نستعرضها في خمسة محاور وبالله التوفيق.

أولاً: البواعث التي أدّت إلىٰ تحويل القبلة.

ثانياً: تفسير الآيات الواردة حول هذا الموضوع.

ثالثاً: الروايات الواردة في شأن نزول تلك الآيات الشريفة.

رابعاً: ما هو السبب لجعل بيت المقدس قبلة أولاً، ثم الكعبة ثانياً؟

خامساً: زمان تحول القبلة ومكانه، وكيفية وقوعه.

١ ـ البواعث التي أدّت إلىٰ تحويل القبلة

لا شك في أنّ رسول الله ﷺ لم يزل مطيعاً لأوامر الله سبحانه وراضياً بها، ولم يكن في نفسه الشريفة كراهة حتى للحظة واحدة بالنسبة إلى القبلة الأولىٰ، لأن الكراهة لا تجتمع مع الإطاعة، ولكنه كان منتظراً ومتوقعاً نزول الوحي في أمر

القبلة، كما يشير إليه القرآن الكريم: ﴿**قد نَرى تقلُّبَ وجهك في السماء...**﴾[٣] وذلك لبواعث نذكر بعضها:

١ ـ نقل المفسرون والمؤرخون أن اليهود كانوا يعيّرون المسلمين، ويتفاخرون عليهم ويقولون: نحن أقدم منكم زماناً لعبادة الله نحو الصخرة في بيت المقدس، وأنتم اتّبعتم قبلتنا، فاغتمّ رسولُ الله صلى الله عليه وآله بذلك غمّاً شديداً، كما دلّت عليها الأخبار الواردة من طرق الفريقين، الشيعة والسنة، سنذكرها.

قال العلّامة الطباطبائي رحمه الله: إن اليهود كانوا أُمّة لا يرون لغير المحسوس من عالم الطبيعة أصالة، ولا لغير الحسّ وقعاً، إذا جاءَهم حكم من أحكام الله معنوي، قبلوه من غير تكلم عليه، وإذا جاءَهم أمر من ربّهم صوري متعلق بالمحسوس من الطبيعة كالقتال والهجرة والسجدة وخضوع القول وغيرها، قابلوه بالانكار وقاوموا عليه ودونه أشد المقاومة.

وبالجملة فقد أخبر الله سبحانه عمّا سيعترضون به علىٰ تحويل القبلة وعلّم رسوله ما ينبغي أن يجابوا ويقطع به قولهم.

أمّا اعتراضهم: فهو أن التحول عن قبلة شرعها الله سبحانه للماضين من أنبيائه إلىٰ بيت ما كان به شيء من هذا الشرف الذاتي، ما وجهه؟ فإن كان بأمر من الله، فإن الله هو الذي جعل بيت المقدس قبلة فكيف ينقض حكمه وينسخ ما شرعه، واليهود ما كانت تعتقد النسخ (كما تقدم في آية النسخ)، وإن كان بغير أمر الله ففيه الانحراف عن مستقيم الصراط والخروج من الهداية إلى الضلال، وهو تعالىٰ وإن لم يذكر في كلامه هذا الاعتراض، إلّا أن ما أجاب به يلوّح بذلك؟

وأمّا الجواب: فهو إنّ جعل بيت من البيوت كالكعبة، أو بناء من الأبنية أو الأجسام كبيت المقدس، أو الحجر الواقع فيه قبلة، ليس لاقتضاء ذاتي منه يستحيل التعدّي عنه، أو عدم إجابة اقتضائه، حتىٰ يكون البيت المقدّس في كونه

قبلة لا يتغيّر حكمه ولا يجوز إلغاؤه، بل جميع الأجسام والأبنية وجميع الجهات التي يمكن أن يتوجه إليه الإنسان في أنها لا تقتضي حكماً ولا يستوجب تشريعاً على السواء، وكلها لله، يحكم فيها ما يشاء، وكيف يشاء، ومتىٰ يشاء، وما حكم به من حكم فهو لهداية الناس علىٰ حسب ما يريد من صلاحهم وكمالهم الفردي والنوعي، فلا يحكم إلّا ليهدي به ولا يهدي إلّا إلىٰ ما هو صراط مستقيم إلىٰ كمال القوم وصلاحهم(٤).

٢ ـ قال الزمخشري: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يتوقع من ربّه أن يحوّله إلى الكعبة؛ لأنها قبلة أبيه إبراهيم، وأدعى للعرب إلى الإيمان؛ لأنها مفخرتهم ومزارهم ومطافهم، ولمخالفة اليهود، فكان يراعي نزول جبريل عليه السلام والوحي بالتحويل(٥).

٣ ـ وذكر أن الباعث للتحويل هو اختبار المسلمين وامتحانهم لاتّباع النبي صلى الله عليه وآله بما أمرهم به وما نهاهم عنه، قال الإمام أبو محمد العسكري عليه السلام: إن هوىٰ أهل مكّة كان في الكعبة، فأراد الله أن يبين متبع محمّد صلى الله عليه وآله من مخالفيه، باتباع القبلة التي كرهها، ومحمّد صلى الله عليه وآله يأمر بها، ولما كان هوىٰ أهل المدينة في بيت المقدس، أمرهم بمخالفتها والتوجه إلى الكعبة، ليبيّن من يوافق محمداً صلى الله عليه وآله فيما يكرهه، فهو مصدقه وموافقه... الحديث(٦).

٤ ـ وقد ذكر أيضاً، أن الكعبة كانت مشغولة في صدر الإسلام بأصنام المشركين وأوثانهم، وكان السلطان معهم، والإسلام لم يقو بعد بحيث يظهر قهره وقدرته، فهدى الله رسوله إلى استقبال بيت المقدس، لكونه قبلة لليهود، الذين هم أقرب في دينهم من المشركين إلى الإسلام، ثمّ لمّا ظهر أمر الإسلام بهجرة رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المدينة، قرب زمان الفتح وتوقع تطهير البيت من أرجاس الأصنام، جاء الأمر بتحويل القبلة(٧).

وسنذكر مطالب أُخرىٰ في المحور الرابع إن شاء الله تعالىٰ.

٢ ـ تفسير الآيات المباركة حول التحويل

الآيات الواردة في سورة البقرة من رقم ١٤٢ إلىٰ ١٥٠ تحكي واقعة تحويل القبلة، وما هو مربوط بتلك الواقعة من توطين الرسول صلى الله عليه وآله نفسه للجواب عمّا يثيره اليهود والمشركون حول هذه المسألة، ومن ابتلاء المسلمين، وقبول صلواتهم تجاه القبلة الأولىٰ من قِبلِ الله سبحانه وتعالىٰ، وغيرها من النكات.

وقد ادّعىٰ بعض المفسرين تقدم بعض هذه الآيات علىٰ بعضها الآخر ونسخ بعضها بعضاً، قال العلّامة الطباطبائي رحمه الله:

الآيات مترتبة متّسقة منتظمة في سياقها علىٰ ما يعطيه التدبر فيها وهي تنبئ عن جعل الكعبة قبلة للمسلمين، فلا يصغى إلىٰ قول من يقول: إن فيها تقدماً وتأخراً، أو إن فيها ناسخاً ومنسوخاً، وربما رووا فيها شيئاً من الروايات، ولا يعبأ بشيء منها بعد مخالفتها لظاهر الآيات[٨].

إذا عرفت هذا فلنشرع ببيان ما ورد في تفسير هذه الآيات البينات، ولنبدأ بما قاله المفسر المتألّه الفيض الكاشاني رحمه الله قال:

قوله تعالىٰ: ﴿سيقول السفهاء من الناس﴾ الذين خفّ أحلامهم أو استمهنوها بالتقليد والإعراض عن النظر، يريد المنكرين لتغيير القبلة من المنافقين واليهود والمشركين، وفائدة تقديم الإخبار به، توطين النفس وإعداد الجواب **﴿ما وَلّيٰهم﴾** ما صرفهم **﴿عن قبلتهم التي كانوا عليها﴾** يعني بيت المقدس **﴿قل لله المشرق والمغرب﴾** لا يختص به مكان دون مكان **﴿يهدي مَن يشاء إلى صراط مستقيم﴾** وهو ما يقتضيه الحكمة والمصلحة من التوجّه إلىٰ بيت المقدس تارةً، وإلى الكعبة اُخرىٰ[٩].

وقال العلّامة الطباطبائي رحمه الله في ذيل هذه الفقرة من الآية الشريفة: **﴿قل لله المشرق والمغرب﴾**، اقتصر من بين الجهات بهاتين لكونهما المعينتين لساير الجهات الأصلية والفرعية، كالشمال والجنوب، وما بين كل جهتين من الجهات

الأربعة الأصلية، والمشرق والمغرب جهتان إضافيتان تتعينان بشروق الشمس أو النجوم وغروبها، يعمان جميع نقاط الأرض غير نقطتين موهومتين، هما نقطتا الشمال والجنوب الحقيقيتان، ولعل هذا هو الوجه في وضع المشرق والمغرب موضع الجهات.

ثمّ ذكر ﷺ للفقرة الأخيرة من الآية الشريفة ﴿**يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم**﴾ ما هذا لفظه: تنكير الصراط، لأن الصراط يختلف باختلاف الأُمم في استعداداتها للهداية إلى الكمال والسعادة[١٠].

قوله تعالىٰ: ﴿**... وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلّا لنعلم من يتّبع الرسول... وما كان الله ليضيعَ إيمانكم إنّ الله بالناس لرءُوف رحيم**﴾ ذكر الزمخشري[١١] أن رسول الله ﷺ كان يصلي بمكّة إلى الكعبة، ثم أمر بالصلاة إلىٰ صخرة بيت المقدس بعد الهجرة تألفاً لليهود، ثم حوّل إلى الكعبة ثانياً بعد الهجرة.

ثم نقل الزمخشري عن ابن عباس: كانت قبلته بمكّة بيت المقدس، إلّا أنه كان يجعل الكعبة بينه وبينه.

أقول: إن الزمخشري بعد أن ادّعىٰ ذلك لم يذكر دليلاً للمدّعىٰ بل نقل عن ابن عباس تلك الرواية التي ذكرناها تعارض ما قال ولا تفيده شيئاً.

نعم، بما أن رسول الله كان موحّداً ومؤمناً إبراهيمياً وكان عابداً لله سبحانه وتعالىٰ من أوّل عمره إلىٰ آخره فهل صلواته في مكّة المكرّمة قبل البعثة وبعدها كانت تجاه الكعبة أو بيت المقدس؟ لهذا البحث مجال واسع يتطلب محلاً آخر.

وقال السيد عبدالله شبَّر[١٢]: وقيل: المراد الكعبة، أي ما رددناك إلىٰ ما كنت عليها إلّا لنعلم الثابت من المرتد لأنه صلّى الله عليه وآله كان يصلّي بمكّة إليها.

هذا، ولكن روى الفيض الكاشاني ﷺ في تفسيره الصافي، عن كتاب الاحتجاج أنه: «لما كان رسول الله ﷺ بمكّة أمره الله عزّوجلّ أن يتوجّه نحو بيت المقدس في صلاته ويجعل الكعبة بينه وبينها إذا أمكن، وإذا لم يمكن استقبل بيت

المقدس كيف كان، وكان رسول الله ﷺ يفعل ذلك طول مقامه بها...»[١٣].

وأنت كما ترى لا يمكن أن يكون مثل هذه الطائفة من الأخبار دليلاً لو فرض أن الزمخشري وغيره قد استفاد منها، وسياق الآيات الكريمة وظاهرها لا يساعده، مع أنّه نجد غير واحد من المفسرين يخالف هذا الادّعاء كالفيض الكاشاني والعلامة الطباطبائي و....

قال في تفسير الميزان: وظاهر الآية أنه دفع لما يختلج في صدور المؤمنين من تغيير القبلة ونسخها، ومن جهة الصلوات التي صلّوها إلى القبلة، وما شأنها؟ ويظهر من ذلك أن المراد بالقبلة التي كان رسول الله ﷺ عليها، هو بيت المقدس لا الكعبة، فلا دليل علىٰ جعل بيت المقدس قبلة مرتين، وجعل الكعبة قبلة مرتين، إذ لو كان المراد من القبلة في الآية الكعبة، كان لازم ذلك ما ذكر[١٤].

وفي تفسير آلاء الرحمن: ﴿**وما جعلنا القبلة التي كنت عليها**﴾ ظاهر قوله تعالىٰ في الآية التي بعد هذه ﴿**فلنولّينك قبلة**﴾ أنها نزلت قبل تحوله ﷺ إلى الكعبة، وظاهر السوق أن هذه الآية نزلت قبل تلك، مع أن ظاهر قوله تعالىٰ: ﴿**التي كنت عليها**﴾ كنت تتوجّه إليها فيما مضىٰ وصرفت عنها، فتشكل هذه الظواهر.

ولأجل ذلك قال بعضهم: إنّ كان تامة بمعنىٰ أنت عليها. وقال في الكشاف: إن ﴿**التي كنت عليها**﴾ مفعول ثان لجعلنا، والمقصود من الموصول مكة، أي وما جعلنا القبلة مكة. وفيه تعقيد ومخالفة للاعتبار مع أن الإشكال المذكور علىٰ حاله. ويرتفع من أصله بأن قوله تعالىٰ: ﴿**كنت عليها**﴾ لا يختص بما بعد الانصراف عنها وانقطاع الكون، بل قيل باعتبار الكون الماضي وتوجهه ﷺ إلى البيت المقدس أشهراً عديدة من دون نظر إلى الانقطاع نحو: ﴿**وكان الله غفوراً رحيماً**﴾ أي: وما جعلنا بيت المقدس قبلة لك هذه المدة ﴿**إلّا لِنعلم**﴾ اللام للعاقبة، والحصر إنما هو باعتبار العاقبة لا حكمة التشريع[١٥].

قوله تعالىٰ: ﴿**... إلّا لِنَعلم مَن يتّبع الرسول ممن ينقلب علىٰ عقبيه وإن**

كانت لكبيرةً إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرَءُوف رحيم﴾[١٦] قال البلاغي﵀ في تفسيره: وكبيرة ثقيلة، ومن اللازم أن يكون استقبال بيت المقدس ثقيلاً علىٰ قريش والعرب إلّا الذين هداهم الله إلى الإيمان برسول الله ﷺ فيعلمون أن ذلك أمر من الله الحكيم ﴿**وما كان الله ليضيع ايمانكم إن الله بالناس لرَءُوف رحيم**﴾ في الكافي عن ابن أبي عمير الزبيدي عن أبي عبدالله ؈ في الآية: إن الله سمّى الصلاة ايماناً. وذكر الصدوق في الفقيه: قال المسلمون: صلاتنا إلىٰ بيت المقدس تضيع يا رسول الله؟ فأنزل ذلك. وذكر أنّه أخرج حديثه في كتاب النبوة. وفي رواية العياشي: أنّه لما حولت القبلة قالوا: ما حالنا؟ أي في صلاتنا الماضية، وما حال من مضى في صلاتهم إلىٰ بيت المقدس؟ فأنزل الله: ﴿**وما كان الله ليضيع ايمانكم**﴾. وفي الدرّ المنثور عن ابن عباس نحوه وصحّحه الحاكم[١٧].

ونقل الطبري في تفسيره عن ابن عباس قال: لمّا وجه رسول الله ﷺ إلى الكعبة قالوا: كيف بمن مات من إخواننا قبل ذلك وهم يصلون نحو بيت المقدس؟ فأنزل الله جلّ ثناؤه: ﴿**وما كان الله ليضيع إيمانكم**﴾ ونقل أيضاً عن أبي إسحاق عن البراء قال: مات على القبلة قبل أن تحول إلى البيت رجال وقتلوا فلم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله تعالىٰ ذكره: ﴿**وما كان الله ليضيع إيمانكم**﴾[١٨].

قوله تعالىٰ: ﴿**قد نرىٰ تقلب وجهك في السماء فلنولّينك قبلةً ترضيٰها فولّ وجهك شطر المسجد الحرام...**﴾.

تقدم سابقاً تفسير هذه الآية الشريفة في المحور الأول من المباحث فراجع.

قال علي بن إبراهيم القمي﵀ في تفسيره: إن اليهود كانوا يعيرون برسول الله ﷺ ويقولون: أنت تابع لنا، تصلي إلىٰ قبلتنا، فاغتم من ذلك رسول الله ﷺ غمّاً شديداً، وخرج في جوف الليل ينظر في آفاق السماء ينتظر بأمر الله تبارك وتعالىٰ في ذلك، فلمّا أصبح وحضرت صلاة الظهر كان في مسجد

بني سالم [بني سلمة][١٩] قد صلىٰ بهم الظهر ركعتين، فنزل جبرئيل عليه السلام فأخذ بعضديه فحوّله إلى الكعبة...[٢٠].

قال العلامة الطباطبائي قدس سره: قوله تعالىٰ: ﴿**وإن الذين اوتوا الكتاب ليعلمون أنّه الحق من ربهم**﴾ وذلك لاشتمال كتابهم علىٰ صدق نبوة رسول الله صلى الله عليه وآله أو كون قبلة هذا النبي الصادق هو شطر المسجد الحرام، وأيّاً ما كان فقوله: ﴿**اوتوا الكتاب**﴾ يدل على اشتمال كتابهم علىٰ حقيقة هذا التشريع، إمّا مطابقةً أو تضمناً ﴿**وما الله بغافل عمّا يعملون**﴾ من كتمان الحق، واحتكار ما عندهم من العلم[٢١].

قوله تعالىٰ: ﴿**ولئن أتيت الذين اوتوا الكتاب بكلّ آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم...**﴾[٢٢].

قال البلاغي رحمه الله: ﴿**ولئن أتيت الذين اوتوا الكتاب**﴾ ولم يوفقوا للإيمان بك ﴿**بكل آية ما تبعوا قبلتك**﴾ أي الكعبة ﴿**وما أنت بتابع قبلتهم**﴾ اتباعاً خصوصاً بعدما أُمرت بالتوجه شطر المسجد الحرام ﴿**وما بعضهم بتابع قبلة بعض**﴾ فإن النصارىٰ تتوجّه إلى المشرق واليهود إلىٰ بيت المقدس ﴿**ولئن اتبعت أهواءَهم...**﴾ هذا توبيخ لهم وتبكيت بأنهم أصحاب أهواء فاسدة لا يتبعها إلّا الظالمون. وخوطب بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله لقطع أطماعهم ولبيان فضله، لأنه لا يتّبع أهواءَهم أبداً بدليل قوله تعالىٰ: ﴿**وما أنت بتابع قبلتهم**﴾[٢٣].

وفي الميزان: قوله تعالىٰ: ﴿**ولئن أتيت الذين أُوتوا الكتاب بكل آية**﴾ تقريع لهم بالعناد واللجاج، وأنّ إباءَهم عن القول ليس لخفاء الحق عليهم، وعدم تنبيه لهم، فانهم عالمون بأنّه حق علماً لا يخالطه شك، بل الباعث لهم علىٰ بث الاعتراض وإثارة الفتنة، عنادهم في الدين وجحودهم للحق، فلا تنفعهم حجة، ولا تقطع إنكارهم آية، فلو أتيتهم بكل آية ما تبعوا قبلتك لعنادهم وجحودهم، وما أنت بتابع قبلتهم؛ لأنك علىٰ بيّنة من ربك، ويمكن أن يكون قوله: ﴿**وما أنت**﴾ نهياً في صورة خبر، وما بعضهم بتابع قبلة بعض، وهم اليهود يستقبلون صخرة

بيت المقدس أينما كانوا، فلا هذا البعض يقبل قبلة ذاك البعض، ولا ذاك يقبل قبلة هذا اتباعاً للهوىٰ[٢٤].

وقال الشيخ الطوسي ﷺ في التبيان: قوله: ﴿**وما أنت بتابع قبلتهم**﴾ قيل في معناه أربعة أقوال:

أولها ـ أنّه لمّا قال: ﴿**ولئن أتيت الذين أُوتوا الكتاب بكلّ آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم...**﴾ علىٰ وجه المقابلة كما تقول: ما هم بتاركي إنكار الحق وما أنت بتارك الاعتراف به، فيكون الذي جرّ الكلام، التقابل للكلام الأول، وذلك حسن من كلام البلغاء.

الثاني ـ أن يكون المراد أنه ليس يمكنك استصلاحهم باتباع قبلتهم لاختلاف وجهتهم، لأن النصارىٰ يتوجهون إلى المشرق، واليهود الىٰ بيت المقدس، فبيّن الله تعالىٰ أن رضا الفريقين محال.

الثالث ـ أن يكون المراد حسم طمع أهل الكتاب من اليهود، إذ كانوا طمعوا في ذلك وظنوا أنه يرجع إلى الصلاة إلىٰ بيت المقدس وماجوا في ذكره.

الرابع ـ أنه لما كان النسخ مجوزاً قبل نزول هذه الآية، فأنزل الله تعالى الآية، ليرتفع ذلك التجوّز[٢٥].

ثم إنه ذكر الشيخ الطوسي ﷺ قولين آخرين في ذكر هذه الفقرة من الآية: ﴿**وما بعضهم بتابع قبلة بعض**﴾ هذا نصّه: قيل في معناه قولان:

أحدهما ـ قال الحسن، والسدي، وابن زيد، والجبائي: إنه لا يصير النصارىٰ كلهم يهودياً، ولا اليهود كلهم يصيرون نصارىٰ أبداً، كما لا يتبع جميعهم الإسلام. وهذا من الإخبار بالغيب.

[ثانيهما] ـ وقال غيرهم: معناه إسقاط الاعتدال بأنّه مخالفة لأهل الكتاب، الذين ورثوا ذلك عن أنبياء الله بأمره إياهم به، فكلما جاز أن يخالف بين وجهتهم للاستصلاح جاز أن يخالف بوجهة ثالثة للاستصلاح في بعض الأزمان[٢٦].

قوله تعالىٰ: ﴿**الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءَهم...**﴾[٢٧].

قال الطبرسي ﷺ: أخبر الله سبحانه بأنهم يعرفون النبي ﷺ وصحة نبوته فقال ﴿**الذين آتيناهم**﴾ أي أعطيناهم ﴿**الكتاب**﴾ وهم العلماء منهم ﴿**يعرفونه**﴾ أي يعرفون محمداً ﷺ وأنّه حقّ ﴿**كما يعرفون أبناءَهم**﴾[٢٨]...

ونرىٰ في تفسير الميزان: الضمير في قوله: ﴿**يعرفونه**﴾ راجع إلىٰ رسول الله ﷺ دون الكتاب، والدليل عليه تشبيه هذه المعرفة بمعرفة الأبناء، فإن ذلك إنما يحس في الإنسان، ولا يقال في الكتاب إن فلاناً يعرفه أو يعلمه، كما يعرفه ابنه، علىٰ أن سياق الكلام ـ وهو في رسول الله ﷺ وما أوحى إليه من أمر القبلة ـ أجنبي عن موضوع الكتاب الذي أُوتيه أهل الكتاب، فالمعنى أن أهل الكتاب يعرفون رسول الله ﷺ بما عندهم من بشارات الكتب كما يعرفون أبناءَهم، وإن فريقاً منه ليكتمون الحق وهم يعلمون...

قوله تعالىٰ: ﴿**الحق من ربّك فلا تكوننَّ من الممترين**﴾ تأكيد البيان السابق وتشديد في النهي عن الامتراء، وهو الشك والارتياب، وظاهر الخطاب لرسول الله ﷺ ومعناه للأُمّة[٢٩].

قوله تعالىٰ: ﴿**ولكلٍّ وجهةٌ هو موليها فاستَبقوا الخيرات...**﴾[٣٠] قال الطبرسي ﷺ في معنىٰ هذه الآية الشريفة: هذا بيان لأمر القبلة أيضاً وقوله: ﴿**ولكلٍّ وِجْهَةٌ**﴾ فيه أقوال:

أحدها ـ أن معناه لكلّ أهل ملّة من اليهود والنصارىٰ قبلة؛ عن مجاهد وأكثر المفسرين.

ثانيها ـ أن لكلّ نبيّ وصاحب ملّة وجهة، أي طريقة وهي الإسلام وإن اختلفت الأحكام كقوله تعالىٰ: ﴿**لكلٍّ جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً**﴾ يعني شرائع الأنبياء، عن الحسن.

ثالثها ـ أن لكلّ من المسلمين وأهل الكتاب قبلة، يعني صلاتهم إلىٰ بيت

المقدس وصلاتهم إلى الكعبة، عن قتادة.

رابعها ـ أن لكلّ قوم من المسلمين وجهة، ومن كان منهم وراء الكعبة أو قدامها أو عن يمينها أو عن شمالها، وهو اختيار الجبائي...[٣١].

قوله تعالىٰ: ﴿**ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربّك وما الله بغافلٍ عمّا تعلمون * ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولّوا وجوهكم شطره...**﴾[٣٢].

قال البلاغي رحمه الله في تفسيره: ﴿**ومن حيث خرجت**﴾ سواء كان الخروج من مكّة إلى المدينة أو من المدينة إلى الشام... ﴿**فولّ وجهك**﴾ في جميع هذه الأحوال وجميع الجهات ﴿**شطر المسجد الحرام**﴾ نحوه ﴿**وإنّه**﴾ أي التوجه إلى المسجد الحرام في الصلاة على الاطلاق المنصوص عليه ﴿**لَلْحق من**﴾ أمر ﴿**ربك**﴾ وشريعته الجارية على الحكمة وكرامة البيت، وأن الله لا يضيع أجركم في امتثال أمره[٣٣]، انتهىٰ كلامه.

أقول: أما التكرار الذي وقع في صدر هاتين الآيتين أعني: ﴿**ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام**﴾ فقد نقل الطبرسي رحمه الله لذلك وجوهاً نذكرها:

١ ـ أنه لما كان فرضاً نسخ ما قبله، كان من مواضع التأكيد والتبيين؛ لينصرف الخلق إلى الحال الثانية من الحال الأُولىٰ علىٰ يقين.

٢ ـ أنه مقدم لما يأتي بعده ويتصل به فأشبه الاسم الذي تكرر لخبر عنه بأخبار كثيرة كما يقال: زيد كريم، زيد عالم، زيد فاضل وما أشبه ذلك ممّا يذكر لتعلق الفائدة به.

٣ ـ أنه في الأول بيان لحال الحَضر وفي الثاني بيان لحال السفر[٣٤].

قال العلامة الطباطبائي رحمه الله: قوله تعالىٰ: ﴿**... لئلا يكون للناس عليكم حجّة إلّا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني**﴾ بيان لفوائد ثلاث في هذا الحكم

الذي فيه أشد التأكيد علىٰ ملازمة الامتثال، والتحذر عن الخلاف:

إحديها ـ أن اليهود كانوا يعلمون من كتبهم أن النبيّ الموعود تكون قبلته الكعبة دون بيت المقدس، كما قال تعالىٰ: ﴿**وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنّه الحق من ربهم...**﴾ وفي ترك هذا الحكم، الحجة لليهود على المسلمين بأن النبيّ ليس هو النبيّ الموعود، لكن التزام هذا الحكم والعمل به يقطع حجتهم إلّا الذين ظلموا منهم، وهو استثناء منقطع، أي لكن الذين ظلموا منهم باتباع الأهواء لا ينقطعون بذلك فلا تخشوهم؛ لأنهم ظالمون باتباع الأهواء، والله لا يهدي القوم الظالمين واخشوني.

ثانيتها: أن ملازمة هذا الحكم يسوق المسلمين إلىٰ تمام النعمة عليهم بكمال دينهم...

ثالثتها: رجاء الاهتداء إلى الصراط المستقيم[٣٥]...

هذا تمام الكلام فيما أردت أن أذكره في هذا المحور، من التفسير حول التحويل.

٣ ـ الروايات الواردة في شأن نزول آيات التحويل

قد ذكرنا بعض الروايات الواردة حول شأن النزول في المحورين السابقين ومع ذلك نذكر بعضاً آخر منها، تتميماً للفائدة:

نقل الطبري عن ابن جُريج عن مجاهد قال: قالت اليهود: يخالفنا محمد ويتبع قبلتنا، فكان يدعو الله جلّ ثناؤه ويستعرض للقبلة فنزلت: ﴿**قد نرىٰ تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلةً ترضاها فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام**﴾ ـ وانقطع قول اليهود يخالفنا ويتبع قبلتنا ـ في صلاة الظهر فجعل الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال[٣٦].

ونقل شيخ الطائفة ﷺ في التهذيب عن الطاطري عن محمد بن أبي حمزة عن

ابن مسكان عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سألته عن قوله تعالىٰ: ﴿**وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلّا لنعلم من يتبع الرسول ممّن ينقلب علىٰ عقبيه**﴾ أمره به؟ قال: نعم، إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يقلب وجهه في السماء، فعلم الله عزّوجلّ ما في نفسه فقال: ﴿**قد نرىٰ تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها**﴾[٣٧].

ونقل الطبرسي رحمه الله في الاحتجاج، عن الإمام أبي محمد العسكري عليه السلام: «جاء قوم من اليهود إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله، فقالوا: يا محمد هذه القبلة بيت المقدس، قد صليت إليها أربع عشرة سنة، ثم تركتها الآن، أفحقاً كان ما كنت عليه؟ فقد تركته إلىٰ باطل، فإنما يخالف الحق الباطل، أو باطلاً كان ذلك؟ فقد كنت عليه طول هذه المدة، فما يؤمننا أن تكون الآن علىٰ باطل؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: بل ذلك كان حقّاً وهذا حقّ، يقوله الله: ﴿**قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم**﴾ إذا عرف صلاحكم يا أيها العباد في استقبال المشرق أمركم به، وإذا عرف صلاحكم في استقبال المغرب أمركم به، وإن عرف صلاحكم في غيرهما أمركم به، فلا تنكروا تدبير الله في عباده، وقصده إلىٰ مصالحكم، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قد تركتم العمل يوم السبت، ثم عملتم بعده سائر الأيام، ثم تركتموه في السبت ثم عملتم بعده، افتركتم الحقّ إلى الباطل والباطل إلىٰ حقّ؟ أو الباطل إلىٰ باطل؟ أو الحقّ إلىٰ حقّ؟ قولوا: كيف شئتم، فهو قول محمد صلى الله عليه وآله وجوابه لكم، قالوا: بل ترك العمل في السبت حقّ، والعمل بعده حقّ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: فكذلك قبلة بيت المقدس في وقته حقّ، ثم به بزعمك من الصلاة إلىٰ بيت المقدس، حين[٣٨] نقلك إلى الكعبة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما بدا له عن ذلك، فإنه العالم بالعواقب، والقادر على المصالح، لا يستدرك علىٰ نفسه غلطاً، ولا يستحدث رأياً يخالف[٣٩] المتقدم، جلّ عن ذلك، ولا يقع أيضاً عليه مانع يمنعه عن مراده، وليس يبدو إلّا لمن كان هذا وصفه، وهو عزّوجلّ متعال عن هذه الصفات علواً كبيراً.

ثم قال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله: أيها اليهود، أخبروني عن الله، أليس يُمرض ثمّ

يُصح؟ ويصح ثمّ يمرض؟ أبدا له في ذلك؟ أليس يحيي ويميت؟ (أليس يأتي بالليل في أثر النهار ثم بالنهار في أثر الليل)[٤٠]؟ أبدا له في كلّ واحد من ذلك؟ قالوا: لا، قال: فكذلك الله تَعبَّد نبيّه محمداً ﷺ، بالصلاة إلى الكعبة، بعد أن[٤١] تَعبَّده بالصلاة إلىٰ بيت المقدس، وما بدا له في الأول ـ ثم قال: ـ أليس يأتي بالشتاء في أثر الصيف؟ والصيف في أثر الشتاء؟ أبدا له في كلّ واحد من ذلك؟ قالوا: لا، قال: فكذلك لم يبد له في القبلة.

قال، ثم قال: أليس قد ألزمكم في الشتاء أن تحترزوا من البرد بالثياب الغليظة؟ وألزمكم في الصيف أن تحترزوا من الحر؟ فبدا له في الصيف حتىٰ أمركم بخلاف ما كان أمركم به في الشتاء؟ قالوا: لا، قال رسول الله ﷺ: فكذلك تعبدكم في وقت لصلاح يعلمه بشيء، ثم بعده[٤٢] في وقت آخر لصلاح آخر يعلمه بشيء آخر، فإذا أطعتم الله في الحالين استحققتم ثوابه، وأنزل الله ﴿**ولله المشرق والمغرب فاينما تولوا فثم وجه الله**﴾[٤٣] أي إذا توجهتم بأمره، فثمّ الوجه الذي تقصدون منه الله وتأملون ثوابه.

ثم قال رسول الله ﷺ: يا عباد الله، أنتم كالمرضىٰ والله ربّ العالمين كالطبيب، فصلاح المرضىٰ فيما يعلمه[٤٤] الطبيب [و][٤٥] يدبره به، لا فيما يشتهيه المريض ويقترحه، ألا فسلموا لله أمره تكونوا من الفائزين.

فقيل له: يا ابن رسول الله، فلم أمر بالقبلة الأُولىٰ؟ فقال: لما قال الله عزّوجلّ: ﴿**وما جعلنا القبلة التي كنت عليها**﴾ وهي بيت المقدس ﴿**إلا لنعلم من يتبع الرسول ممّن ينقلب علىٰ عقبيه**﴾[٤٦] إلا لنعلم ذلك منه موجوداً، بعد أن علمناه سيوجد ذلك، إنّ هوىٰ أهل مكّة كان في الكعبة، فأراد الله أن يبين متبع[٤٧] محمد ﷺ من مخالفه[٤٨]، باتباع القبلة التي كرهها، ومحمد ﷺ يأمر بها، ولما كان هوىٰ أهل المدينة في بيت المقدس، أمرهم بمخالفتها والتوجّه إلى الكعبة، ليتبين[٤٩] من يوافق محمداً ﷺ فيما يكرهه، فهو مصدقه وموافقه.

ثم قال: ﴿**وإن كانت لكبيرة إلّا على الذين هدى الله**﴾[٥٠] إنما كان التوجه إلىٰ بيت المقدس، في ذلك الوقت كبيرة، إلّا علىٰ من يهدي الله، فعرف أن الله يُتعبّد بخلاف ما يريده المرء، ليبتلي طاعته في مخالفته هواه»[٥١].

فقد ظهرت من هذه الروايات وغيرها، مهمّة القبلة وتحويلها من بيت المقدس إلى الكعبة المشرّفة، والحِكم التي أرادها الله سبحانه وتعالىٰ من بداية هذه الواقعة الكبيرة حتى النهاية.

وسيوافيك مزيداً من البحث حول هذا الموضوع إن شاء الله.

٤ ـ ما هو السبب لجعل بيت المقدس قبلةً أوّلاً ثم الكعبة ثانياً؟

حينما نرجع إلى المصادر ـ من الكتاب والسنّة والتفسير والتأريخ ـ للتعرف عن السبب لهذا الجعل، نجد أسباباً مختلفةً ومطالب شتى، فبما أن تعرّف هذه الأسباب مفيد جدّاً، وأن الورود في مثل هذه الأبحاث يستدعي التعرض للمطالب الفرعية فضلاً عن الأصلية، فلنبدأ بذكر تلك الأسباب:

١ ـ قوله تعالىٰ: ﴿**ولله المشرق والمغرب فأينما تولّوا فَثَمَّ وجهُ الله**﴾[٥٢].

٢ ـ قوله تعالىٰ: ﴿**سيقول السفهاء من الناس ما ولّيٰهم عن قبلتهم التي كانوا عليهم قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم**﴾[٥٣].

٣ ـ قوله تعالىٰ: ﴿**وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلّا لنعلم من يتبع الرسول...**﴾[٥٤].

٤ ـ الإمام الحسن بن عليّ العسكري عليه السلام: إن هوىٰ أهل مكّة كان في الكعبة... وهوىٰ أهل المدينة في بيت المقدس... فأراد الله أن يبين متبع محمّد صلى الله عليه وآله من مخالفه[٥٥].

٥ ـ الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله لما بعث كانت الصلاة إلىٰ قبلة بيت المقدس، فكان في أول بعثته يصلي إلىٰ بيت المقدس

جميع أيام مقامه بمكّة، وبعد هجرته إلى المدينة بأشهر، فعيّرته اليهود...»[٥٦].

٦ ـ قال صاحب تفسير مجمع البيان: وأمّا الوجه في الصرف عن القبلة الأولىٰ ففيه قولان:

أحدهما: أنه لِمَا علم الله تعالىٰ في ذلك من تغير المصلحة.

الآخر: أنه لما بيّنه سبحانه بقوله: ﴿**لنعلم من يتبع الرسول ممّن ينقلب علىٰ عقبيه**﴾ لأنهم كانوا بمكّة أمروا أن يتوجهوا إلىٰ بيت المقدس ليتميزوا من المشركين، الذين كانوا يتوجهون إلى الكعبة، فلما انتقل رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المدينة كانت اليهود يتوجهون إلىٰ بيت المقدس، فأمروا بالتوجه إلى الكعبة ليتميزوا من أولئك[٥٧].

٧ ـ قال الزمخشري في الكشاف: إن رسول الله صلى الله عليه وآله... أمر بالصلاة إلىٰ صخرة بيت المقدس... ثمّ حوّل إلى الكعبة... امتحاناً للناس وابتلاء...[٥٨].

٨ ـ وقيل: لنميز التابع من الناكص[٥٩].

٩ ـ قال البلاغي رحمه الله: ... ومن اللازم أن يكون استقبال بيت المقدس ثقيلاً علىٰ قريش والعرب، إلّا الذين هداهم الله إلى الإيمان برسول الله فيعلمون أن ذلك أمر من الله الحكمى[٦٠].

١٠ ـ نقل العلامة المجلسي رحمه الله عن كتاب الاحتجاج: وتفسير العسكري عليه السلام في احتجاج النبيّ صلى الله عليه وآله على المشركين قال: إنّا عباد الله مخلوقون مربوبون، نأتمر فيما أمرنا، وننزجر عمّا زجرنا... فلما أمرنا أن نعبده بالتوجه إلى الكعبة أطعنا، ثم أمرنا بعبادته بالتوجه نحوها في سائر البلدان التي نكون بها فأطعنا، فلم نخرج في شيء من ذلك من اتباع أمره[٦١].

١١ ـ وقال العلامة الطباطبائي: إن هذه الأحكام والتشريعات ليست إلّا لأجل مصالح تعود إلىٰ تربية الناس وتكميلهم، وتمحيص المؤمنين من غيرهم وتمييز المطيعين من العاصين، والمنقادين من المتمردين[٦٢].

هذا تمام الكلام في الأسباب.

ثم إنه اختلف في الذين عابوا المسلمين بالانصراف عن قبلة بيت المقدس أولاً ثم إلى الكعبة ثانياً، أهم اليهود، أو المشركون، أو المنافقون؟

قال ابن عباس وغيره: هم اليهود.

وقال الحسن: هم مشركو العرب، وأن رسول الله ﷺ لمّا حوّل إلى الكعبة من بيت المقدس قالوا: يا محمد رغبت عن قبلة آبائك، ثم رجعت إليها، فلترجعنَّ إلىٰ دينهم.

وقال السدي: هم المنافقون، قالوا ذلك استهزاءً بالإسلام(٦٣).

واختلف أيضاً في سبب مقالتهم، فقال ابن عباس: إنهم قالوا ذلك علىٰ وجه الإنكار للنسخ. وقيل: للامتحان. وقيل: إنما قاله مشركو العرب؛ ليوهموا أن الحقّ ما هم عليه(٦٤).

٥ ـ زمان تحويل القبلة ومكانه وكيفية وقوعه

بما أن هذا المحور من أدقّ وأصعب المحاور في هذا المقال؛ لكثرة الاختلاف في المواضيع التي أردنا التعرض لها، فلذلك أخرناه حتىٰ تكون المحاور السابقة بمثابة المقدمة، وسنستفيد من بعض الخرائط اللازمة تبييناً للمراد وتسهيلاً للبحث.

الف: زمان تحويل القبلة:

اِعلم أن زمان التحويل كان في السنة الثانية للهجرة، والأكثر قائلون بذلك شيعة وسنة، ويؤيده بعض الأخبار من طرق الفريقين، ولكن الخلاف وقع في شهر الوقوع ويومه.

نقل العلامة المجلسي في البحار عن المفيد: حوّلت القبلة في النصف من رجب سنة اثنتين من الهجرة(٦٥).

وقال الواقدي: كان هذا يوم الاثنين للنصف من رجب علىٰ رأس سبعة عشر شهراً، وعن البراء: علىٰ رأس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وعن

السدي: علىٰ رأس ثمانية عشر شهراً من مهاجرته(٦٦).

وقال الحلبي في سيرته: وحوّلت القبلة في شهر رجب من السنة المذكورة، التي هي الثانية في نصفه...(٦٧).

وقال ابن هشام: قال ابن إسحاق:... وصرفت في رجب علىٰ رأس سبعة عشر شهراً من مقدم رسول الله ﷺ المدينة(٦٨).

وذكر الطبري في تفسيره أن ابن عباس قال:... وصرفت في رجب علىٰ رأس سبعة عشر شهراً...(٦٩).

ونقل الكازروني اليماني عن محمد بن حبيب الهاشمي: حوّلت في الظهر يوم الثلاثاء للنصف من شعبان(٧٠).

وقال الشبلنجي: وفي السنة الثانية من الهجرة في نصف شعبان حوّلت القبلة إلى الكعبة(٧١).

وقال اليعقوبي في تأريخه:... وصرفت القبلة نحو المسجد الحرام في شعبان بعد مقدمه بالمدينة بسنة وخمسة أشهر، وقيل بسنة ونصف(٧٢).

ونرىٰ في تأريخ الطبري: صرفت في النصف من شعبان(٧٣).

ونقل الحلبي أيضاً: وقيل: كان في جمادى الآخرة(٧٤).

هذا، والحق ما قاله المفيد رحمه الله والواقدي ومن تبعهما؛ لأن قدوم رسول الله ﷺ من مكّة المكرّمة إلى المدينة كان في شهر ربيع الأول، والدليل علىٰ ذلك ما رواه الطبرسي في الاحتجاج بالإسناد إلى الإمام أبي محمد العسكري عليه السلام، قال: «لمّا كان رسول الله ﷺ بمكة، أمر الله تعالىٰ أن يتوجّه نحو البيت المقدس في صلاته، ويجعل الكعبة بينه وبينها إذا أمكن، وإذا لم يتمكن استقبل البيت المقدس كيف كان، وكان رسول الله ﷺ يفعل ذلك طول مقامه بها، ثلاث عشرة سنة، فلمّا كان بالمدينة، وكان متعبداً باستقبال بيت المقدس، استقبله وانحرف عن الكعبة، سبعة عشر شهراً أو ستة عشر شهراً...»(٧٥).

وروى الطبرسي أيضاً في المجمع عن ابن عباس: «كانت الصلاة إلىٰ بيت المقدس بعد مقدم النبي صلى الله عليه وآله المدينة سبعة عشر شهراً»(٧٦).

وروىٰ أيضاً عن البراء بن عازب قال: «صليت مع رسول الله صلى الله عليه وآله نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، ثم صرفنا نحو الكعبة»(٧٧).

ب ـ مكان تحويل القبلة

لا شك في أن تحويل القبلة وقع في المدينة، ولكن اختلفت الأخبار والآراء في محلّ التحويل، فهل وقع ذلك في المسجد النبوي الشريف، أو وقع في مسجد بني سلمة (دار أم بشر)، أو في مكان آخر؟

أما المسجد النبوي الشريف، فلا يمكن القول به؛ لأنه:

أولاً: إذا حدث هذا الأمر المهم في المسجد النبوي؛ لعرفنا موضع التحويل كما نعرف الأماكن الأثرية المقدّسة في ذلك المكان الشريف.

ثانياً: يوجد مسجد واحد فقط بالمدينة، يعرف بالقبلتين، مع أنه حدث في مكانين آخرين (مسجد قبا(٧٨) وعند بني عبد الأشهل(٧٩))أداء صلاة واحدة إلى القبلتين (بيت المقدس والكعبة) ولم يطلق عليهما اسم القبلتين من صدر الإسلام إلىٰ زماننا هذا، فإن لم تكن لمسجد القبلتين (المعروف من صدر الإسلام حتى الآن) خصوصية، فلماذا لم يطلق لكلا المكانين ذلك الاسم؟

ثالثاً: إن النبي صلى الله عليه وآله لم يكن في نفس الوقت عند بني عبدالأشهل ومسجد قبا، بل خبر التحويل وصل إلى المكانين المذكورين، والمصلّون كانوا في الصلاة، فاستداروا نحو الكعبة.

رابعاً: إنّا لم نجد خبراً يدل علىٰ وجود مسجد عند بني عبدالأشهل يعرف بالقبلتين، مع أنهم كانوا يعيشون في شرق المدينة المنورة، لا في غربها.

نعم، روى الشيخ الطوسي في التهذيب عن أبي بصير عن أحدهما عليهما السلام: «... قال: إن بني عبدالأشهل أتوهم وهم في الصلاة قد صلّوا ركعتين إلىٰ بيت

المقدس فقيل لهم: إن نبيكم قد صرف إلى الكعبة، فتحول النساء مكان الرجال، والرجال مكان النساء، وجعلوا الركعتين الباقيتين إلى الكعبة، فصلّوا صلاة واحدة إلى القبلتين، فلذلك سمّي مسجدهم مسجد القبلتين»[٨٠].

ولكنه لا يخفىٰ أن المسجد الأثري الذي يعرف بمسجد القبلتين، يقع إلى الشمال الغربي من المسجد النبوي الشريف في الحرّة الغربية (حرّة الوبرة)، وكان لبني سلمة، وكان فيه محرابان، أحدهما متجهٌ إلىٰ بيت المقدس، وثانيهما متجهٌ إلى الكعبة.

وأمّا بنو عبدالأشهل فكانت بيوتهم ومساكنهم في الحرّة الشرقية (حرّة واقم)، شرق المسجد النبوي الشريف، وشتان بينه وبين ذاك المسجد الأثري، الذي حقّق الله تعالىٰ فيه أمنية وتطلّعات رسوله الكريم صلى الله عليه وآله، في أن تكون وجهته وقبلته البيت الحرام والكعبة المشرّفة.

وممّا يجدر ذكره أن مسجد الإجابة (مسجد المباهلة) يقع بين دور بني عبدالأشهل[٨١] ودور بني معاوية، ولم يعرف ولم يسمّ بالقبلتين، اللّهم إلّا أن يقال: إنه كان هناك مسجد وخرب ولم يبق منه أثر؛ وهذا بعيد جدّاً.

وممّا يؤيد ما نحن بصدده، ما قاله الفيض الكاشاني رحمه الله في ذيل خبر التهذيب، حيث أورد بعض الأشياء علىٰ ظهور الخبر، واختلاف الألفاظ في قصة بني عبدالأشهل.

قال: بيانٌ: «أتوهم» أي جماعة، والظاهر أن لفظة «هم» زيادة من النساخ، وبناء الفعل للمفعول كما في «قيل» فإنّ في بعض هذه القصة: «فأتىٰ بني عبدالأشهل رجل من الأنصار» وفي بعضها: «فأتىٰ رجل ممّن صلّىٰ مع النبي صلى الله عليه وآله قوماً في مسجد». وبالجملة فيها ما يدلّ علىٰ انفراد المخبر[٨٢].

ثم إنه توجد روايات في كتب الفريقين تدل علىٰ تحويل القبلة في مسجد بني سلمة، والنبيّ صلى الله عليه وآله كان حاضراً هناك، وإليك بعضها:

روىٰ علي بن إبراهيم بإسناده عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: تحوّلت القبلة إلى الكعبة بعدما صلّى النبيّ صلى الله عليه وآله بمكّة ثلاث عشرة سنة إلىٰ بيت المقدس... فلمّا أصبح وحضر وقت صلاة الظهر، كان في مسجد بني سالم [سلمة][٨٣] قد صلّىٰ من الظهر ركعتين فنزل عليه جبرائيل عليه السلام فأخذ بعضديه فحوّله إلى الكعبة... وكان صلّىٰ ركعتين إلىٰ بيت المقدس وركعتين إلى الكعبة[٨٤].

وعن جابر بن عبدالله الأنصاري: أن النبي صلّىٰ في مسجد الخربة ومسجد القبلتين، وفي مسجد بني حرام الذي بالقاع[٨٥].

وروىٰ عثمان بن محمّد الأحبشي قال: زار رسول الله صلى الله عليه وآله امرأة من بني سلمة يقال لها أم بشر في بني سلمة، فصنعت له طعاماً فجاء الظهر، فصلّىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله بأصحابه في مسجد القبلتين الظهر، فلمّا صلّىٰ ركعتين أُمر أن يتوجه إلى الكعبة، فاستدار رسول الله صلى الله عليه وآله، فسمي ذلك المسجد مسجد القبلتين[٨٦].

وقال السمهودي: وعند الزمخشري: صُرفت القبلة ورسول الله صلى الله عليه وآله في مسجد بني سلمة ـ يعني مسجد القبلتين ـ وقد صلّىٰ بأصحابه ركعتين من صلاة الظهر، فتحوّل في الصلاة، واستقبل الميزاب، وحول الرجال مكان النساء، والنساء مكان الرجال[٨٧].

فقد ورد أنّه صلى الله عليه وآله جاء يعزي أم بشر، امرأة من بني سلمة مات ابن لها، وعزمت عليه أن يقيل عندها هو ومن معه من أصحابه، فذبحت له عناقاً «جفرة» وتغدى عندها، فأدركته صلاة الظهر فقام يصلي هو وأصحابه في بيتها متوجهين إلىٰ بيت المقدس، وبعد قيامه للركعة الثالثة نزل عليه الوحي بتحويل القبلة إلىٰ بيت الله الحرام، فاستدار بوجهه إلى الجنوب، واستدار أصحابه حتىٰ صاروا خلفه... وبعد ذلك طلب بنو سلمة من أم بشر أن تبيعهم هذه الدار؛ ليتخذوها مسجداً لصلاة النبي صلى الله عليه وآله فيها، فوهبتها لهم فبنوا فيها مسجدهم الذي أطلق عليه بعد مسجد بني سلمة إسم «القبلتين» الذي نزلت آية تحويل القبلة في مكانه[٨٨].

ج ـ كيفية وقوع التحويل

بما أن الروايات والأخبار التأريخية الواردة في شأن هذا الحدث العظيم قد صرحت بتحويل القبلة، حين الصلاة في بني سلمة، إلّا أن تسمية هذا المكان بـ(مسجد القبلتين) تمّ؛ لأن التحويل وقع فيه أولاً وفي صلاة جماعة كان النبيُّ صلى الله عليه وآله إمامَها ثانياً، ولو لم يكن كذلك، لصدق أسم مسجد القبلتين علىٰ غيره من الأماكن كمسجد بني عبد الأشهل ومسجد قبا[٨٩] لوقوع صلاة العصر في الأول وصلاة الصبح في الثاني إلى القبلتين.

ثم إنه نقل السمهودي في وفاء الوفا عن ابن سعد أن الانصراف إلى الكعبة كان في صلاة الجماعة. وكذا ابن سعد نقل عن الواقدي: أن تحويل القبلة كان في صلاة الجماعة، وكان إمامها رسول الله صلى الله عليه وآله، وفي مسجد القبلتين، ثم قال ابن سعد: قال الواقدي: هذا أثبت عندنا[٩٠].

ونقل الشيخ قوام الدين الوشنوي عن إسعاف الراغبين: وفي هذه السنة ـ السنة الثانية ـ حوّلت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، والنبيّ صلى الله عليه وآله يصلّي بأصحابه صلاة الظهر عند الأكثر، فوقع نصفها إلىٰ بيت المقدس ونصفها إلى الكعبة[٩١].

ونقل الشيخ قوام الدين الوشنوي أيضاً: والأكثرون علىٰ ان تحويلها كان في صلاة الظهر، وقيل العصر، وفي الصحيحين عن البراء: أن أول صلاة صلّاها رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الكعبة صلاة العصر. ثم قال: وقد يقال لا منافاة، لجواز أن يكون المراد أول صلاة صلّاها كلّها إلى الكعبة صلاة العصر، لأن الظهر صلّىٰ نصفها الأول إلىٰ بيت المقدس ونصفها الثاني إلى الكعبة[٩٢].

فظهر عمّا ذكر أن تحويل القبلة حدث في صلاة الظهر، وقد صرّح بذلك ما رواه علي بن إبراهيم بإسناده عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام[٩٣]، وقد ذكر في كتب الحديث والتأريخ أنه حدث ذلك في صلاة الجماعة بإمامة رسول الله صلى الله عليه وآله في مسجد القبلتين. والله العالم.

الخريطة رقم ١

الخريطة رقم ٢

المراجع

١ ـ القرآن الكريم.
٢ ـ المنجد، الطبعة ٢١، دار المشرق، بيروت.
٣ ـ الميزان في تفسير القرآن، الطبعة ٣، مؤسسة اسماعيليان للنشر، قم، ١٣٩٣هـ.
٤ ـ البرهان في تفسير القرآن، الطبعة ٢، دار الكتب العلمية، قم.
٥ ـ الكشاف، الطبعة ١، مكتب الإعلام الإسلامي، قم، ١٤١٤هـ.
٦ ـ تفسير الصافي، رحلي، مكتبة المحمودي، طهران، ١٣٣٤هـ.ش.
٧ ـ آلاء الرحمن في تفسير القرآن، لمحمد جواد البلاغي، الطبعة ٢، مكتبة الوجداني، قم.
٨ ـ جامع البيان في تفسير القرآن، للطبري، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٩هـ.
٩ ـ تفسير القمي، لعليّ بن إبراهيم القمي من أعلام قرني ٣ ـ ٤هـ، مكتبة الهدىٰ، ط ٢، بيروت، ١٣٨٧هـ.
١٠ ـ تهذيب الأحكام، للشيخ الطوسي رحمه الله، دار الأضواء، بيروت ـ الطبعة ٣، ١٤٠٦هـ.
١١ ـ مستدرك الوسائل، مؤسسة آل البيت عليهم السلام، الطبعة ١، ١٤٠٧هـ.
١٢ ـ بحار الأنوار، للعلامة المجلسي رحمه الله، مؤسسة الوفاء، بيروت ـ الطبعة ٢، ١٤٠٣هـ.
١٣ ـ مجمع البيان، للشيخ الطبرسي رحمه الله، دار إحياء التراث العربي، ١٣٧٩هـ.
١٤ ـ حياة النبي وسيرته، لقوام الدين الوشنوي، دار الأسوة، قم ط ١، ١٤١٦هـ.
١٥ ـ السيرة الحلبية.
١٦ ـ السيرة النبوية لابن هشام.
١٧ ـ تفسير الطبري، دار المعرفة بيروت، ١٤٠٩هـ.
١٨ ـ المنتقىٰ في مولد المصطفىٰ، للكازروني اليماني.
١٩ ـ نور الأبصار، للشبلنجي.
٢٠ ـ تأريخ اليعقوبي، لأحمد بن أبي يعقوب، دار صادر بيروت، ١٣٧٩هـ ـ ١٩٦٠م.
٢١ ـ تأريخ الطبري، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، بيروت، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.
٢٢ ـ الموطّأ، لمالك بن أنس، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
٢٣ ـ الوافي، لملّا محسن الفيض الكاشاني، طبع إصفهان، ط ١، ١٤٠٦هـ.
٢٤ ـ تأريخ المدينة المنورة، لابن شبّه.
٢٥ ـ أخبار مدينة الرسول، لحافظ محمد بن النجار، مكتبة الثقافة، مكّة المكرّمة، ط ٣، ١٤٠١هـ.
٢٦ ـ وفاء الوفا، للسمهودي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ط ٣، ١٩٨١م.
٢٧ ـ طيبة، مدينة الرسول، المهرجان للإعلان، جدة، ١٩٩٤م.

الهوامش :

(١) سورة البقرة: ١٤٢ ـ ١٥٠.
(٢) قراءة «بيت المَقْدِسْ»أو«البيت المقدَّس» كل من القراءتين صحيحةأُنظر: المنجد، حرف الباء: ٥٥.
(٣) سورة البقرة: ١٤٤.
(٤) الميزان ١: ٣١٧، ٣١٨.
(٥) الكشّاف ١: ٢٠٢.
(٦) البرهان في تفسير القرآن ١: ١٥٩.
(٧) الميزان ١: ٣٢٩.
(٨) المصدر نفسه ١: ٣١٧.
(٩) تفسير الصافي: ٤٩.
(١٠) الميزان ١: ٣١٩.
(١١) الكشاف ١: ٢٠٠.
(١٢) تفسير شُبَّر: ٦١.
(١٣) تفسير الصافي: ٤٩.
(١٤) الميزان ١: ٣٢٤ والمراد من قولهﷺ: «جعل بيت المقدس قبلة مرتين وجعل الكعبة قبلة مرتين» أي: مرة في مكّة المكرّمة ومرّة أخرىٰ في المدينة المنوّرة.
(١٥) آلاء الرحمن في تفسير القرآن ١: ١٣٤.
(١٦) سورة البقرة: ١٤٣.
(١٧) آلاء الرحمن في تفسير القرآن ١: ١٣٥.
(١٨) جامع البيان ٢: ١١.
(١٩) الصحيح ما ذكرناه بين المعقوفتين، فراجع المحور الخامس من البحث، وانظر الخريطة رقم ١.
(٢٠) تفسير القمي ١: ٦٣.
(٢١) الميزان ١: ٣٢٦.
(٢٢) سورة البقرة: ١٤٥.
(٢٣) آلاء الرحمن في تفسير القرآن ١: ١٣٦ ـ ١٣٧.
(٢٤) الميزان ١: ٣٢٦.

(٢٥) التبيان ١: ١٩ ـ ٢٠.
(٢٦) المصدر نفسه ١: ٢٠.
(٢٧) سورة البقرة: ١٤٦.
(٢٨) مجمع البيان ١: ٢٢٩.
(٢٩) الميزان ١: ٣٢٦ ـ ٣٢٧.
(٣٠) سورة البقرة: ١٤٨.
(٣١) مجمع البيان ١: ٢٣٠ ـ ٢٣١.
(٣٢) سورة البقرة: ١٤٩ ـ ١٥٠.
(٣٣) آلاء الرحمن في تفسير القرآن ١: ١٣٨.
(٣٤) مجمع البيان ٢: ١٣.
(٣٥) الميزان ١: ٣٢٨ ـ ٣٢٩.
(٣٦) جامع البيان ٢: ١٣.
(٣٧) تهذيب الأحكام ٢: ٤٣.
(٣٨) في المصدر: حتىٰ.
(٣٩) وفيه: بخلاف.
(٤٠) ما بين القوسين ليس في المصدر.
(٤١) وفيه زيادة: كان.
(٤٢) في المصدر: تعبّدكم.
(٤٣) البقرة ٢: ١١٥.
(٤٤) في المصدر: يعمله.
(٤٥) أثبتناه في المصدر.
(٤٦) البقرة ٢: ١٤٣.
(٤٧) في المصدر: متبعي.
(٤٨) ممّن خالفه.
(٤٩) وفيه: ليُبيّن.
(٥٠) البقرة ٢: ١٤٣.
(٥١) مستدرك الوسائل ٣: ١٧٥.
(٥٢) سورة البقرة: ١١٥.
(٥٣) المصدر نفسه: ١٤٢.
(٥٤) المصدر نفسه: ١٤٣.

(٥٥) مستدرك الوسائل ٣: ١٧٨.
(٥٦) بحار الأنوار ٨١: ٦٦.
(٥٧) مجمع البيان ١: ٢٢٢.
(٥٨) الكشاف ١: ٢٠٠.
(٥٩) المصدر نفسه.
(٦٠) آلاء الرحمن في تفسير القرآن ١: ١٣٥.
(٦١) بحار الأنوار ٨١: ٧١.
(٦٢) الميزان ١: ٣٢٤.
(٦٣) مجمع البيان ١: ٢٢٢.
(٦٤) المصدر نفسه.
(٦٥) بحار الأنوار ٨١: ٦٣.
(٦٦) حياة النبي وسيرته ١: ٢٩٨.
(٦٧) السيرة الحلبية ٢: ١٢٨.
(٦٨) السيرة النبوية لابن هشام ٢: ١٩٨.
(٦٩) تفسير الطبري ٢: ٣.
(٧٠) المنتقىٰ في مولد المصطفىٰ.
(٧١) نور الأبصار: ٤٤.
(٧٢) تأريخ اليعقوبي ٢: ٤٢.
(٧٣) تأريخ الطبري ٢: ٤١٦.
(٧٤) السيرة الحلبية ٢: ١٢٨.
(٧٥) مستدرك الوسائل ٣: ١٨٤.
(٧٦) مجمع البيان ١: ٢٢٣.
(٧٧) المصدر نفسه.
(٧٨) الموطّأ ١: ١٩٤.
(٧٩) تهذيب الأحكام ٢: ٤٤.
(٨٠) المصدر نفسه.
(٨١) انظر إلى الخريطة رقم ٢.
(٨٢) الوافي ٧: ٥٣٨.
(٨٣) الظاهر الصحيح ذلك، أُنظر الخريطة رقم ٢.
(٨٤) مجمع البيان ١: ٢٢٣.

(٨٥) تأريخ المدينة المنوّرة، لابن شبّه ١: ٦٨.
(٨٦) أخبار مدينة الرسول، لابن النجار: ١١٥.
(٨٧) وفاء الوفا، للسمهودي ١: ٣٦٢.
(٨٨) طيبة، مدينة الرسول: ٩٠ ـ ٩١.
(٨٩) الموطّأ ١: ١٩٤.
(٩٠) وفاء الوفا، للسمهودي ١: ٣٦٣.
(٩١) حياة النبي وسيرته ١: ٣٠١.
(٩٢) المصدر نفسه ١: ٢٩٩.
(٩٣) مجمع البيان ١: ٢٢٣.